الفصل الثانى

سرّ السعادة

كتب بولس الرسول يقول إنه قد تعلم سر الاكتفاء. إنه يسمِّيه سرًّا؛ لأنه أمر لا يتعلَّمه الكثير من الناس، ولأنه من الصعب على غير المؤمنين أن يفهموا ما الذي يجعل المؤمنين سعداء. وفي هذا الفصل سندرس بعض الأمور عن السعادة المسيحية، والتي يمكن أن تكون محيِّرة.

أولا: إن السعادة المسيحية محيِّرة، لأنها تشمل الاكتفاء في اتجاه وعدم الاكتفاء في اتجاه آخر. فالمؤمنون سعداء دائما؛ لإدراكهم أن الله معهم، ويحزنون إذا لم يشعروا بذلك شعورا حقيقيا. ومما يحزنهم أيضا أن يتذكروا بشاعة خطاياهم؛ لأن الخطية هي التي تحرمهم من التمتع بالشركة مع الله. لكن في السماء وفي السماء فقط، سيصبحون بلا خطية وسيتمتعون بشركة متصلة مع الله، كما أنهم لا يجدون شبعهم في الأشياء التي يفضلها غير المؤمنين. إن إحساسهم بأنهم محبوبون من الله، أهم عندهم من أي شيء يقدمه العالم. لقد شعر آساف (الذي كتب عدة مزامير) بمثل هذا الشعور؛ فكتب: "من لي سواك في السماء، ومعك لا أريد شيئا في الأرض" (مز73: 25). وهذا الشعور بأنهم محبوبون من الله، حفظ المؤمنين سعداء حتى في أشد أوقات الضيق.

كذلك يختبر المؤمنون السلام الذي يهبه الله، وهو سلام "يفوق كل عقل" (في4: 7). وبمجرد أن يختبروه، لا يمكنهم أن يسعدوا بدونه؛ لأنهم يدركون أن هذا السلام منبعه قرب الرب يسوع المسيح، رئيس السلام، منهم. فهم يختبرون هذا السلام طالما كانت طاعتهم له في ذروتها. وعلى العكس من ذلك فإن غير المؤمنين يطلبون السلام لكنهم لا يريدون أن يطيعوا الرب يسوع. ولابد أن يروا أن المؤمنين

الذين يقابلونهم هم أكثر الناس إحساسا بالسعادة والرضا والسلام. وإذا سألوا عن السبب لابد أن يجيب المؤمنون: "أن ذلك لأنهم خدام رئيس السلام".

ثانيا: السعادة المسيحية محيِّرة لغير المؤمنين، لأنها لا تنشأ من أخذ الكثير، بل من الاكتفاء بالقليل. يظن غير المؤمنين أنه كلما امتلكوا الكثير ليتمتعوا به، كلما كانوا أكثر سعادة، بينما يدرك المؤمنون أن هذه الأمور الأرضية لن تجعلهم سعداء إلا لوقت قصير؛ فالأغنياء ليسوا بالضرورة سعداء، فما يسعد المؤمنين سعادة حقيقية هو رغبتهم في الأشياء التي يختار الله أن يمنحهم إياها فقط؛ فسعادتهم لا تنشأ من حجم أرصدتهم في البنوك، بل من رغبتهم في الاكتفاء بما يختار الله أن يعطيهم. من يكون له الكثير لكنه يرغب في المزيد سيصبح بائسا، والإنسان الذي له القليل من الأشياء ولا يرغب في المزيد سيكون سعيدا. ذلك يشبه شخصا له رجلان قصيرتان، يمشي بأكثر سهولة ويسر عن آخر له رجل طويلة وأخرى قصيرة! هذا الدرس من الأهمية بمكان للمؤمنين لكي يتعلموه في أيامنا هذه، التي فيها يرغب غير المؤمنين في الكثير والكثير من الأشياء المادِّية، وينجحون في الحصول عليها. وعلى المؤمنين أن يُظهروا للآخرين أن السعادة تتم بالرغبة في القليل، وليس بالحصول على الأكثر.

ثالثا: السعادة المسيحية محيِّرة كذلك، لأن الطريق إلى السعادة أحيانا لا يكون بالبعد عن القلق، بل بالبدء في القلق من ناحية شيء آخر. لنفترض أننا متضايقون بسبب مشكلة تؤثر علينا. لو ظننا أن كل ما نحتاج إليه لنسترد السعادة، هو التخلص من المشكلة، فإننا نخدع أنفسنا؛ فالشيء الذي يحرمنا من السعادة في الواقع هو الخطية، فإذا ازداد قلقنا من جهة الخطية، فإن مشكلاتنا الأخرى ستتضاءل. والخطية التي قد يقع فيها المؤمنون بصفة خاصة، هي نسيانهم أن كل ما عندهم مصدره الله، وبالتالي نسيانهم أن يشكروه، أو أنهم يلومون الله بسبب الأمور التي يعانون منها. لو تذكروا أن الله صالح معهم أكثر مما يستحقون، لكان من الأسهل عليهم أن يكونوا سعداء حتى في الأوقات الصعبة. فلو وَجدَتْ إحدى العائلات مثلا أن خططها للمستقبل لا تتم وفق ما تريد، فإن أفرادها قد يبدأون في المنازعة وتوجيه اللوم لبعضهم البعض. لكن

المنازعة خطية، ويجب عليهم أن يوقفوها، ويطلبوا من الله أن يغفر لهم، إذا أرادوا أن يكونوا سعداء في المستقبل.

رابعًا: مما يحيِّر في السعادة المسيحية أيضا هو أن التخلص من المشكلة ليس شرطا لنكون سعداء؛ ففي بعض الأحيان يباركنا الله أثناء الألم، وهذا ما كتبه بولس الرسول: "لأن الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون" (غل5: 17). هذا الصراع يحدث داخل كل مؤمن بصفة مستمرة. وفي بعض الأحيان تساعدنا المشكلة أن ننتصر على الجسد وأن يزداد اقترابنا من الله أكثر؛ وبهذه الكيفية يتحوَّل الألم إلى بركة.

خامسًا: السعادة المسيحية محيِّرة أيضا، لأنها لا تتحقق بالرغبة في أخذ المزيد، أو بزيادة ما لنا، بل بزيادة إنجازنا. يقول المؤمن: "إن الله وراء ما حدث لي، وبسبب ما أصابني فإني لست سعيدا كما كنت، ولكن لا يوجد مجال للشكوى، بل يجب أن أبحث عن طرق جديدة، أخدم بها الله وأجد فيها السعادة بطاعتي له". سيكون المؤمنون أكثر سعادة بخدمتهم الله بقدر استطاعتهم، وليس بالامتداد إلى خارج نطاق إمكانياتهم، فلا يجب أن يكونوا كالأطفال الذين يحاولون أن يلمسوا السحاب.

سادسًا: مما يجعل السعادة المسيحية محيِّرة لغير المؤمنين، أن ما يجعل المؤمنين سعداء، هو تعلُّمهم قبول حقيقة أن إرادة الله هي الأفضل، ومتى تعلموا ذلك، فإن عدم تحقيق رغباتهم لا يضايقهم، لكنهم في الواقع سعداء بأن يريدوا ما يريده الله، وأن يحبوا ما يحبه، وأن يكرهوا ما يكرهه. إن لسان حال كل منهم هو: "لقد جعلني الله حكيما حكمة روحية، وجعلني مقدسا، وعلَّمني أن أقبل أن مشيئته هي الأفضل، وحيث أن الله راض بذلك، وبذلك يتمجَّد؛ لذا فأنا سعيد".

ويمكننا أن نجمل هذه الستة أسباب المحيرة بالقول إن ما يجعل المؤمن سعيدا هو أن الله يقدسه، فسعادته تستند على ما يعمله الله. عندما كتب يعقوب: "من أين

الحروب والخصومات بينكم؟ أليست من هنا من لذاتكم المحاربة في أعضائكم؟" كان يرينا أن سبب التعاسة بين المؤمنين هو وجود خطية في حياتهم، فإذا ما تخلَّصنا من تلك المشاعر الداخلية الأثيمة، التي تؤدي إلى الشر، فسنكون أكثر سعادة. والخلاصة أن السعادة الحقيقية، لا تنشأ مما نملك، بل تتوقف على نوعيتنا كَبَشَر. هذا هو سر السعادة العظيم.

إن الذين سعادتهم من هذا النوع – سعداء من الداخل لأنهم أنقياء من الداخل – يسرُّون بكل ما يقدمه الله لهم، فهم واثقون أن كل ما لديهم هو هبة من الله: سواء الصحة، أو البيت، أو المأكل، أو الملبس، أو الأصدقاء، أو الأسرة، أو الوظيفة، أو الفرص، أو وسائل التسلية. كل هذه هبات من الله، وعلامة على محبته لهم؛ لذلك فالمؤمنون مسرورون بها جميعا، وسعداء بقبولها. قد يكون ما لديهم أقل مما لدى بعض غير المؤمنين، لكنهم يقدِّرون ما لديهم تقديرا عظيما، لأنهم يدركون أن الأفضل للإنسان أن يمتلك القليل، ويكون ابنًا لله، من أن يملك الكثير ويقع تحت دينونته. فضلا عن ذلك، يعرف المؤمنون أن كل علامة من علامات محبة الله التي يقبلونها منه، هي بمثابة ضمان أو عربون، بأن الله سيفي بوعوده الصالحة في الحياة الآتية؛ فكل ما يعطيه الله لهم يجعلهم سعداء، ويذكِّرهم بالسعادة الفائقة التي سيتمتعون بها.

مرة أخرى نقول إن المؤمنين السعداء من الداخل؛ لأنهم أنقياء من الداخل، يجدون أنهم عندما يعانون ينالون تعزياتهم في التفكير في الرب يسوع المسيح، وهذه أعظم مما يمكن أن يجتنوه من التذمر. إنهم عندما يقرأون العهد الجديد يرَوْن كم تألم الرب يسوع، ويعرفون أن الرب يتألم عندما يتألمون، لأنه اختبر الألم. لقد اختبر الرب يسوع كل أنواع الألم: الجسدي، والمادي، والعاطفي، والروحي؛ فقد كان يسوع فقيرا، لذا يقدر أن يريح المؤمنين الفقراء، ولأنه ظُلم يقدر أن يعزِّي ضحايا الظلم. لقد عُذِّب؛ لذلك يستطيع أن يعزِّي المؤمنين، الذين يطلبون منه قوة في وقت الألم. لقد وعد الرب قائلا: "إذا اجتزت في المياه فأنا معك". وقد يخشى المؤمنون الموت،

لكنهم يتشجَّعون عندما يفكِّرون في موت الرب يسوع، خاصة عندما يذكرون أنه قام من الأموات.

هذا هو الطريق الوحيد الذي يمكن للمؤمنين أن ينالوا به القوة عندما يعانون. إنهم يلتفتون إلى المسيح الذي له السلطان أن يغفر خطاياهم، ويقدِّسهم، ويعينهم في جميع تجاربهم. عندما كتب بولس الرسول إلى بعض المؤمنين الذين كانوا يعانون من تجارب شديدة، أوصاهم ألا يتَّكلوا على قدراتهم الذاتية، بل على القوة التي يمنحها المسيح، وكانت صلاته أنهم يكونوا: "متقوِّين بكل قوة بحسب قدرة مجده"، وذلك لكي يكون لهم "كل صبر وطول أناة بفرح" (كو1: 11).

أخيرًا فإن السعيد من الداخل، لأنه نقي من الداخل، يجد أن السعادة العظمى مصدرها معرفة الله. كان كل شيء محبطًا لكاتب "مراثي إرميا"؛ فمدينة أورشليم قد سقطت في يد العدو، وبدا كأن شعب الله أصبح بدون مستقبل، لكنه كان يعرف أن المصدر الوحيد والحقيقي للسعادة هو الله نفسه؛ لذلك كتب يقول: "نصيبي هو الرب قالت نفسي، من أجل ذلك أرجوه" (مرا 3: 24). لقد عرفنا أن الله هو الذي أعطى المؤمنين كل شيء؛ وما يعطيه الله يجلب السعادة، تماما كما توصل الأنابيب الماء. لكن أحيانا ينقطع الإمداد ويتحتم الحصول على الماء من النبع مباشرة. وبنفس الطريقة، عندما تنفد الأشياء التي يعطيها الله، يكون علينا أن نتجه إلى مصدر السعادة، الله نفسه، وبمرور الوقت يتزايد إدراك المؤمنين أن مصدر السعادة الحقيقية هو الله نفسه، وفي السماء سيكون هو المصدر الوحيد للسعادة: "ولم أر فيها هيكلا لأن الرب، القادر على كل شيء هو والخروف هيكلها، والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها" (رؤ21: 22، 23). وحتى على الأرض هنا يمكننا أن نبدأ في اختبار هذه السعادة في الله وحده.

إن الرب يسوع يوجز هذه الأمور التي تعلمناها في هذا الفصل بقوله: "لا يأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك. لأن ها ملكوت الله داخلكم" (لو17: 20، 21). يتطلع المؤمنون لأن يكونوا في السماء، لكنهم يتمتعون بالسماء هنا بشكل ما. إنهم يعرفون ان اختبارهم مذاق السماء في هذه الحياة، يؤكد أنهم سيختبرونه اختبارا كاملا. أما في الوقت الحاضر، فكل ما يختبرونه عن الله، يرضيهم كل الرضى؛ لأن المسيح لا يعجز عن تسديد أي احتياجات لهم.

لكن هذا النوع من السعادة لا يتحقق إلا عندما يكون هناك سلام في داخل الشخص، مثل الأسرة السعيدة التي تنعم بسلام داخل البيت. لكن غير المؤمن ليس في سلام؛ ولذا فلا يمكن أن يكون سعيدا، مثل أسرة تعيسة لأن أفرادها في نزاع دائم.

ويدرك المؤمنون أن وجود هذا السلام، وهذه السعادة في داخلهم، دليل على أنهم سوف يتمتعون بالسلام والسعادة في السماء. ان إدراك هذه الحقيقة مكَّن بعض المؤمنين أن يموتوا بشجاعة عوض أن ينكروا الإيمان، إذ تطلَّعوا إلى الوجود في السماء. وقد كتب بولس الرسول هذه الكلمات: "لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنَى، فالداخل يتجدد يوما فيوما. لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثِقَلَ مجد أبديا. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرَى، بل إلى التي لا تُرَى، لأن التي تُرَى وقتية وأما التي لا تُرَى فأبدية." (2كو4: 16 – 18).

وسوف ندرس سبب يقين المؤمنين من أن الله سيتمم ما وعد به، وذلك في الفصل التالي.

أسئلة دراسية في الفصلين الأول والثاني

1. ما هي أهم الأسباب لعدم القناعة في حياتك؟ كن أمينا مع نفسك!
2. إن القناعة صفة من صفات الله نفسه، وهي هبة ثمينة يعطيها الله لأولاده. ما هو مفهومك عن طبيعة هذه القناعة؟
3. يتحدث الفصل الثاني عن القناعة المسيحية كسرٍّ عظيم، وكشيء لا يمكن أن يفهمه الشخص غير المؤمن. إن أردنا أن نكون أمناء لابد أن نعترف أن كثيرين من المؤمنين يجهلون هذا السر، فما السبب؟
4. ما هي العلاقة الموجودة، أو التي يجب أن تكون، بين القناعة المسيحية وموعد المجد العتيد أن يُعلَن؟
5. "إن السعادة المسيحية... لا تأتي من الحصول على ما هو أكثر، بل من انحسار رغباتنا." – كيف يمكننا أن نكبح رغباتنا؟
6. كيف تختلف رغباتنا وتوقعاتنا كمؤمنين، عن رغبات وتوقعات غير المؤمنين من أقربائنا وأصدقائنا وجيراننا؟
7. ما هي العلاقة بين القناعة والتقوى؟
8. في ضوء إجاباتك عن الأسئلة السابقة، ما هي التغييرات التي تحتاج أن تحدث في أسلوب حياتك؟